شخصيات من أدب المقاومة

فهمي عبد الجواد

بقلم سامي خشبة

في بناء ادبي متماسك من نوع « بين القصرين » للكاتب الروائي الكبير نجيب محفوظ ، يصعب ان ننتزع شخصية واحدة لنفحصها بمفردها وبمعزل عن بقية الشخصيات والعلاقات والاحداث التي تتبلور وتتحدد بعيدا عن تلك الشخصية التي نبغي فحصها . فالرواية تقدم لوحة كاملة تتحرك في بطء زمني وئيد تتداخل الوانها وظلالها ،وتشتبك احداثها وعلاقات شخصياتها في محاولة من اجل خلق تصور شامل عن جوهر مرحلة تاريخية كاملة من حياة شعب باسره . وبهذا الشكل قد يكون من التعسف ان نعزل شخصية فهمي عبد الجواد لنفحصه بمفرده بعيدا عن بيته واسرته . ان ما يمنعنا من القيام بهذا العمل ، هو ذلك المنهج الذي أخذ به المؤلف نفسه من محاولة النفاذ الى جوهر الحقيقة التاريخية الواقعية واستحضارها الى عمله الادبي ، الشيء الذي يحيل الرواية ، لا الى مجرد عمل واقعي ناضج وحسب – وانما يحيلها الى صورة حية متماسكة لذلك الجانب من الحقيقة الواقعية الذي جعله المؤلف اساسا تاريخيا لعمله الادبي . كما ان التماسك الشديد الذي يتميز به بناء الرواية ، والرؤية الشاملة التي تشكل قوة جاذبية تلحم جزئيات الرواية كلها وتشدها بعضها الى البعض – هذه الرؤية التي استهدفت كشف المعنى الكلي للعملية الاجتماعية في تلك الفترة التي شملتها الرواية من التاريخ – اقول ان ذلك التماسك وهذه الرؤية هما ما يجعلان اكتشاف المعنى الكلي للعمل الادبي شيئا لازما من اجل فهم شخصية واحدة من شخصيات الرواية ، وعلى وجه الخصوص من أجل فهم شخصية فهمي عبد الجواد .

وفي مثل تلك المرحلة التاريخية التي اختارها نجيب محفوظ بيئة لخلقه الفني ، حينما عاش الشعب المصري تجربة الشروع في النضال من اجل استعادة حريته ، لا من براثن الاستعمار الانجليزي وحده ، وانما من تحت اثقال تسعة قرون كاملة من التجهيل والافقار والتجمد الحضاري والضياع القومي والقهر السياسي والفقر الروحي المدقع ، اقول ان عملا روائيا يتخذ من تلك المرحلة التاريخية التي تحتوي مثل تلك التجربة ، لا يسعه ان يتخذ من «الشخصيات» المتفردة وحدة لبنائه الفني ، الا بمقدار ما تكون تلك الشخصيات انماطا دالة على مجموع الآخرين . فان الشعب في مجموعه هو الذي عانى الجهل والفقر والتجمد والضياع والقهر ، ولم يتفرد بهذه المعاناة اشخاص متميزون . كذلك فان الشعب في مجموعه هو الذي شرع يشن النضال من اجل الحرية ، على مستويات متفاوتة من النضال ، ولم يستأثر بهذا النضال اشخاص متفردون . ولكن الحرية هنا تتخذ مفهوما اكثر شمولا من مجرد الهدف السياسي الذي تحدده الحركة السياسية لنفسها . الحرية هنا لا تعني مجرد « الاستقلال » . فان الاستعمار اذا كان يتجسد ماديا في الاحتلال العسكري والاستنزاف الاقتصادي ، فانه لا يتوقف عند هذين الحدين . واذا كان « الاستقلال » هو هدف الحركة السياسية في مرحلة « بين القصرين » التاريخية ، فان نضال الشعب المصري في مجموعه لم يكن يهدف الى مجرد الاستقلال ، حتى ولا في هذه المرحلة نفسها . ان محاولات الغزاة – على اختلاف مستوياتها – لم تتوقف في سبيل الوصول الى امتلاك روح الشعب المقهور وعقله ، بعد اتمام مهمة امتلاك ارضه . ومنذ دخل الفاطميون مصر في القرن العاشر ، بدأت تلك المحاولات لترويض روح الشعب المصري وعقله واخضاعهما لنظم عقلية وفكرية تقوم في معظمها على النقل والخرافة ، او على الاستعلاء العنصري او التزييف الحضاري المنظم . وربما لم تبدأ المقاومة الجدية من جانب العقل المصري الا في منتصف القرن الثامن عشر في الازهر . ولم تبلغ هذه المقاومة ذروتها الا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين في عصر الشيخ محمد عبده. وقد قال لنا نجيب محفوظ في اشارة عابرة ان فهمي عبد الجواد قد تأثر بشيء من تعاليم محمد عبده . ولكن فهمي لم يكن امتدادا لهذه المقاومة التي استندت اصلا الى العقلية الاسلامية وتراثها الثقافي المستنير . كان فهمي ثمرة لحركة اخرى – بدأت من الازهر ايضا منذ عصر رفاعة الطهطاوي – ولكنها خرجت عليه منذ نادى لطفي السيد بضرورة الترجمة والنقل الثقافي من الغرب ، وبدأ الصراع بين القديم الازهري ، وبين الجديد الذي مثلته دفعات الدارسين في اوروبا ، المتعلمين الافندية ، ابناء الطبقات العليا والمتوسطة من قراء ارسطو وجان جاك روسو وكل الثقافات المثالية ، يقابلون بين ثقافتهم التي اعتبروها « عقلا » خالصا ، وبين التراث كله الذي اعتبروه « خرافة » خالصة . وهم الذين لا يعرفون الكثير – وربما لا يعرفون شيئا – عن الجانب المستنير من ذلك التراث ، عن المعتزلة مثلا وصراعهم العقلي ضد النقل والتجمد الفكري والخرافة ، وصراعهم ضد السلطة السياسية القائمة على القهر واستغلال الدين .

وحينما كان شيوخ الازهر هم قادة المقاومة الفكرية ، فانما كانوا يحصلون على هذه القيادة لانهم كانوا ايضا قادة المقاومة الاجتماعية والسياسية الوطنية ، يقودونها بمفردهم حتى اوائل القرن التاسع عشر ، ويشتركون في قيادتها في اواخره ، ثم يتخلون نهائيا عن قيادة اي من الحركتين ، الفكرية او الاجتماعية ، منذ تم الانفصال الاجتماعي والفكري بين الافندية – الذين تولوا القيادة الحقيقية – وبين الازهر ككل الذي اصبح مصدرا للثورة الفكرية المضادة حين كف عن الاستناد على الجانب المضيء من التراث الاسلامي واصر على مقاومة الجديد في مجموعه باعتباره بدعا مضللة ، وان ظل جزءا لصيقا من الحركة الوطنية – لا يشترك في قيادتها – حتى نهاية ثورة ١٩١٩ .

وهكذا كان فهمي بعيدا ايضا عن الحركة الوطنية من جانبها التقليدي الازهري الذي كان المنبت الوحيد للمثقفين الوطنيين طوال القرنين السابقين . وقد قال لنا المؤلف في اشارة عابرة ايضا انه قد تأثر بمحمد فريد – زعيم الحزب الوطني المنفي – وظل يردد اسمه ليربط عودته بعودة الخديو عباس الذي عزله الانجليز ، وليربط بينهما وبين عودة الخلافة الى سابق قوتها ، دون ان يدرك شيئا من التناقض بين استقلال مصر الذي يريده محمد فريد ، وبين عودة الخديو المعزول بسلطة الخلافة المنتصرة التي يريدها هو – مثلما تريدها امه الطيبة وابوه المتحمس السلبي – الى جانب الاستقلال . ظل فهمي يردد اسم محمد فريد والخديو عباس ويتمنى ان تنتصر تركيا حتى تعود الخلافة الى سابق قوتها ، الى ان انتهت الحرب ، وهزمت تركيا فانهارت كل هذه الآمال . ولكنه يسمع ان وفدا يتزعمه رجل نصف مشهور اسمه سعد زغلول قد تقدم بمذكرة الى نائب الملك مطالبا برفع الحماية واعلان الاستقلال . منذ ذلك الحين اصبح فهمي وطنيا بالمفهوم السياسي الجديد ، مطالبا بالاستقلال التام ، يتمنى الموت الزؤام في سبيله ولا يبدي استعدادا كبيرا للقتال المنظم من اجل هذا الاستقلال، ولا يكاد يعرف شيئا عما سيفعله زعيمه الجديد ولا ماذا يمكن ان يصنع ، ولا يعرف شيئا عن صورة وطنه بعد تحقيق ذلك الاستقلال الذي تخامره الرغبة في الموت في سبيله .

هكذا نوشك أن نستغرق في عملية عزل فهمي عبد الجواد وتأمله على انفراد ، قبل ان نقدم ما يبرر هذه العملية . ولكننا نرى في فهمي عبد الجواد ـ رغم حركته المحدودة في الرواية ـ الجوهر الحقيقي لذلك الجانب من الواقع التاريخي الذي أراده المؤلف بيئة لعمله ، والذي شغل المؤلف نفسه بمهمة استحضاره الى الرواية. فاذا كانت « بين القصرين » باعتبارها بداية لنهاية مرحلة كاملة من ادب نجيب محفوظ ـ اذا كانت جزءا من بحث هذا الاديب المصري الخالص عن حقيقة وطنه وعن حقيقة معنى انتمائه الاجتماعي والفكري داخل هذا الوطن .. واذا كان منهج الالتزام بالحقيقة هو المنهج الذي اختاره المؤلف ـ بغض النظر عن مدى التزامه بهذا المنهج ـ حتى يصل الى هدفه الفردي والجماعي في وقت واحد ، فاننا نرى ان فهمي عبدالجواد هو المحور الذي يدور حوله جوهر تلك الحقيقة التي التزم بها نجيب محفوظ . فقد كان فهمي هو الوحيد في ذلك الجيل من اجيال الرواية الذي اثقلت المعاناة الروحية ـ رغم خفة معاناته ـ تجربته مع الحب والاسرة والوطن ، اي تجربته الفردية والجماعية كليهما . وادا نظرنا الى « بين القصرين » باعتبارها الحلقة الاولى من ثلاثية روائية كان بطلها الاساسي هو « كمال عبد الجواد » الشقيق الاصغر لفهمي ، وكان موضوعها الاساسي هو معاناة كمال الروحية والفكرية والاجتماعية ـ باعتباره تصويرا للمؤلف نفسه كما اقر بذلك نجيب محفوظ ، وباعتباره محاولة لتجسيد جيله بكامله ـ فاننا نرى في فهمي السلف الحقيقي لكمال ، وليس اباه الروحي ، تماما مثلما كان جيل فهمي هو السلف الحقيقي لجيل كمال بينما عجز ايهما عن الارتباط الروحي بالآخر . فبينما انشغل كمال بقضايا الفكر المجردة بعيدا عن هموم الواقع او متباعدا عن الاصول الواقعية لقضاياه الفكرية ، فسنرى كيف انشغل فهمي « بالمهام » وليس « بالقضايا » اليومية شديدة الجزئية ، دون ان يشغل عقله بالبحث عن مدلولاتها الفكرية حتى ولا على المستوى الجزئي العادي الا نادرا ، وغالبا من خلال تقريرات المؤلف الخارجية ، وليس من خلال مواقف الشخصية نفسها . ورغم هذا فقد كان فهمي هو المنشغل الوحيد بين مجايليه في الرواية بشيء اكبر من ذاته الفردية الصغيرة ، على العكس تماما مما كان كمال من بعده . انشغل فهمي بالعمل الثوري دون كثير من التفلسف او دون تفلسف على الاطلاق ، بالصورة التي ارادها له المؤلف ، من اجل استقلال وطنه ، وانشغل كمال بالبحث التأملي الخالص عن وجوده الفردي مرورا بكل الفلسفات التي عرفها . ولكن ، قد يبدو التشابه بين الشقيقين ، والتتابع المنطقي بينهما ، في بداية انشغال كل منهما بمشكلته الاساسية الخاصة به من خلال تجربة كل منهما العاطفية الموؤودة ، وفي الاسباب التي ادت بكل من التجربتين الى الفشل ـ بعد التشابه الجزئي بين ملامح التجربتين ـ وفي رد فعل كل من الشقيقين ازاء فشل تجربته . لكل ذلك فاننا نريد ان ننتزع فهمي عبد الجواد قليلا من بين ابيه وامه واخوته ـ وليس من بين ارتباطاته بهؤلاء او بوطنه ـ لكي نتأمله على انفراد .

ومع هذا فاننا بعزلنا لفهمي عبد الجواد لا نفرض على شخصيته وضعا بعيدا عن وضعها الذي هيأه لها المؤلف . فبين اب جبار متعال بالغ القسوة لا تشغل عقله غير امور تجارته او بيته او فسقه ، وام مستضعفة سلبية مقهورة امام زوجها تعمل لحسابه امام ابنائه ولحسابهم امامه تكاد الخرافة ان تكون هي لباب تصورها عن عالم الروح والعقل ، ثم اشقاء تتوزعهم مشاغل الزواج او المرح ـ المشروع وغير المشروع ـ والثرثرة التي بلا نهاية ، اقول انه بين اسرة هذا هو جوهر تكوينها النفسي والعقلي ، فلن يكون الشاب الحقوقي المتقد حماسا ، الذي يسمح لنفسه بأن يحب ، وان يشغل عقله بامور السياسة والحرب ، لن يكون هذا الشاب سوى نبت غريب غير مألوف، وان كان حبيبا ومحترما من الجميع . ولن يكون من المستغرب ان .. « تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، وطن جديد وبيت جديد واهل جدد ، ينتفضون جميعا حماسا وحيوية ، ولكن ما ان يفيق على هذا الجو من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والالم، فتروم في فهرها متنفسا ـ أيا ما كان ـ تنطلق منه الى «السماء» . الى السماء يود ان ينطلق في هذه اللحظة ، غريبا حتى عن البيت الذي يعيش فيه اهله ، غريبا حتى عن اهله . ولكن فهمي لا يعاني هذه الغربة الا في لحظات « انفعاله » الحماسي الذي لا يقابله انفعال حماسي من الاخرين . فهو مؤمن بدينه ايمانا راسخا ، ولا يمانع في تقبل احجبة الشيخ المجذوب ، بل يتقبلها في رضى ظاهر رغم انه يتشكك فيها « وان ابت عليه دماثة خلقه ان يجهر بتشككه او يعلن استهانته » ، غير انه يستطيع في لحظة الانفعال ان يواجه امه بهذه القولة المجدفة « ان سعدا سيعمل ما كانت تعمله الملائكة لسيدنا محمد » . وهو يستطيع في لحظة الانفعال أن يرفض طلب أبيه اليه بأن يقسم على القرآن الا يشترك في المظاهرات ولا في اعمال الثورة ، ولكنه في لحظة التروي الهادىء لا يجرؤ على مواجهة الاب الجبار حتى ولو من اجل التشفع لامه الحبيبة نفسها . لذلك فاننا نراه في لحظة الانفعال قادرا على السخط على « الفتور والسذاجة وعدم المبالاة » ، ولكنه في لحظة التأمل الساكن ، لحظة الاستيقاظ من النوم ، يستطيع أن يوائم بين قلقه الروحي الذي لا يستقر وبين سكينة بيته التي لا ينتابها قلق من هذا النوع ، وان يطامن من سخطه ليكتشف أن « كبار الحادثات لا يعطل صغار الاعمال ـ ليست اما على هامش الحياة هي التي انجبته والابناء وقود الثورة ، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الابناء ، الحق ان ليس ثمة شيء تافه في هذه الحياة » . هكذا يستطيع فهمي ان يلم شمل تطلعه المتواضع الى حياة جديدة وموقف جديد من عالم متغير ، مع نفس الحياة القائمة والعالم الموروث والموقف الراسخ . ولكن كيف لنا نحن أن نستسلم في شخصية فهمي لهذا التقابل بين لحظات الايمان ولحظات القلق ، لحظات التمرد ولحظات القبول ، لحظات الرفض ولحظات الحنين ؟ .

الحق اننا سنخطىء خطأ فادحا ان نحن تصورنا غربة فهمي عبد الجواد باعتبارها من نوع تلك الغربة التي عاناها شقيقه الاصغر كمال فيما بعد حينما تحطمت مثله العليا امام ناظريه ثم لم يحصل على مثل أعلى واحد جديد بدلا من المثل القديمة المتحطمة . كانت غربة كمال غربة عقلية فرضتها عزلته الاجتماعية الكاملة ورغبته في حل مشاكل الفكر المجرد بعيدا عن مشاكل الواقع المادي . كذلك فاننا سنخطىء خطأ لا يقل خطورة أن نحن اعتقدنا ان غربة فهمي من نوع غربة المثقف الغربي المعاصر ـ الذي حصلنا منه على مفهوم الاغتراب الحديث . فهذه الاخيرة غربة اجتماعية يعيشها مثقف فقد انتماءه لمجتمعه القائم نتيجة لتعقيد هذا المجتمع وماديته وضراوته . لا يسعنا ان ننظر الى فهمي باعتباره نوعا من المغترب العقلي لانه لم يشغل نفسه بامور العقل كثيرا ، كذلك فاننا لا يسعنا أن ننظر اليه كمغترب باعتباره نوعا من المغترب الاجتماعي وضحية عالم معقد طالما لم يكن عالمه معقدا الى الدرجة التي يمكن أن تخلق هذا المغترب الحديث ، وطالما كان العلاج المطلوب لعالمه علاجا بسيطا وهائلا في وقت واحد : الثورة . الا ان ثورة فهمي ـ او ثورة جيله التي قدمها علاجا لذلك العالم انما كانت موجهة في اساسها ضد « احتلال » الغزاة ، وليس ضد تخلف مجتمعه وتعفنه الى جانب توجيهها ضد هؤلاء الغزاة . لقد نظر فهمي ـ كما نظر جيله من الثوار ـ الى الغزاة نظرة الكراهية ، واكتفوا بالنظر الى وجه مصر نظرة الاسى . لقد خرجوا من رحم مصر ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القدرة على ان يمنحوها وجها جديدا ، اذ لم يمتلكوا اي تصور عما يمكن ان يكون عليه هذا الوجه الجديد ، رغم تشككهم في جمال وجهها الذي عرفوه ، ورغم سخطهم على ما علق به من غبار القرون العشرة السابقة. هكذا كانوا ثوارا في مواجهة الاحتلال ـ على اختلاف مستوى ثوريتهم واستعدادهم للمضي في الثورة الى مداها ـ ولكنهم لم يكونوا غير مشفقين مما آل اليه عقل شعبهم وروحه . وهكذا كان فهمي بنبله ودماثته وحرمانه واستشهاده ـ وهذه هي الصورة التي رسمها المؤلف

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

فهمي عبـد الجواد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ـ

***

الثوري « بين القصرين » ـ يعيش بين جماعة رجالها من القساة الغلاظ الفاترين أو السلبيين الفسقة ، رغم طيبتهم وتدينهم وتجاوبهم الوجداني الذي لا شك فيه مع شعبهم ، ونساؤها مستسلمات قانعات ساذجات جاهلات ، اقول ان فهمي كان بهذا الوضع مغتربا اخلاقيا وضحية لعالم منحط .

ومع هذا فاننا لا يسعنا الا التساؤل عن موقف فهمي الحقيقي ـ بعيدا عن تحديد نوع اغترابه ـ من انحطاط عالمه ، وهو العالم الذي لم يبرز منه المؤلف سوى البيت والاسرة . اننا لم نعرف شيئا عن اصدقاء فهمي في مدرسة الحقوق ـ قبل الثورة او في اثنائها ـ وقد كانت دراسة الحقوق في هذه الفترة هي انضج امثلة العلم الحديث الذي خلف التعليم الازهري القديم . بل اننا لم نلمح شيئا مما تأثر به فهمي من هذه الدراسة او علاماتها على شخصيته او تفكيره او مواقفه . ان فهمي يلوح كما لو كان قد ولد جادا رزينا عاقلا طموحا عاطفيا مكتئبا ، بعيدا كل البعد عن شخصية ابيه ـ فيما عدا ملامح وجهه ـ ومناقضا كل التناقض لشخصية اخيه الاكبر الشهواني المندفع ياسين . لم يصدم فهمي حين اكتشف الجانب الاخر المنحل من شخصية ابيه في « فرح » اخته عائشة ، بل ان دهشته كانت دهشة قليلة بالقياس الى هذا الاكتشاف الذي زعزع وجدان كمال فيما بعد. وحينما رفض ابوه في غلظة ان يخطب له فتاة احلامه مريم ، كان رد فعله هو « الصمت » المطبق الكامل ، والهروب الى احلام اليقظة تمتزج فيها مريم بانتصار الثورة ومقابلته للزعيم . وحينما جاءه نبأ علاقة حبيبته القدسية هذه بالجندي الانجليزي لم يتعد انفعاله اكثر من « آلام » الذي لم يمنعه من مجاراة مناوشات شقيقته خديجة في مزاحها الذكي حول مريم نفسها ، المزاح المحمل بموقف خديجة الحاسم من مريم ومن حب شقيقها لها . اما كمال فقد واجه ما يشبه الانهيار الداخلي الكامل حينما « تزوجت » معبودته التي لم يكن هو نفسه قد فكر في الزواج بها . وحينما انتهت الحرب ، وهزم الالمان ، وهزم الخليفة التركي ، وطاشت احلام فهمي الوطنية الاولى وبدا الموقف مظلما باعثا على الياس ، لم يشعر فهمي باكثر من الاسى الممتزج بالدهشة السطحية لهذه النهاية غير المتوقعة . فما الذي دفع فهمي الى الثورة والانغماس في اعمالها هذا الانغماس الكلي الذي دفع به الى الموت ، وهو الذي شعر بالامتعاض في البداية لان الزعماء الجدد لم يكونوا من رجال حزبه الوطني القديم ؟ .

الحق اننا يخالجنا بعض الشك في دوافع فهمي الى الثورة ـ رغم كراهيته المبكرة للانجليز ـ وان يخالجنا اي شك في نبل اندماجه التالي في الثورة نفسها ، ولا في عظمة استشهاده المجيد . فبينما اجهد المؤلف نفسه في تصوير شخصياته جميعا من خلال مواقفهم العملية الخارجية ، ومن خلال التجسيد البارز لعلاقاتهم بعضهم بالبعض، ولم يلجأ الى التحليل اللفظي لهذه الشخصيات او لعلاقاتها من داخل وعيها الباطني الخاص الا نادرا ـ ربما باستثناء الاب ، فاننا نرى فهمي وحده لا يحظى بمثل هذا الاهتمام من جانب المؤلف . انه صامت معظم الوقت في جلسات القهوة العائلية في المساء ـ الا اذا ثارت مناقشة سياسية ، مناقشة فحسب . ساعتها ، سنرى فهمي والانفعال يطفي على الوعي عنده ، واذا به لا يردد اكثر من مجموعة من الشعارات الحماسية ، يسندها باستشهادات دينية متواضعة ، الامر الذي يجعلنا نتساءل عن مدى معرفة هذا الثوري بتعاليم استاذيه في الاستنارة والثورة ـ اللذين ذكرهما المؤلف عرضا ـ محمد عبده ومحمد فريد . وفهمي يحب بطريقة فيها من الصمت والسلبية اكثر مما فيها من محاولة البوح والوصول ، حتى اننا نتساءل عن مصير هذا الحب لو ان مريم هي التي وقع عليها اختيار المؤلف لكي تكون البادئة بالاهتمام بفهمي.

وهو يفضل التظاهر بالنوم حين تكتشف فضيحة اخيه ياسين الاولى ثم الثانية . اننا لا نكاد نلمح لفهمي طوال الرواية اكثر من موقفين ايجابيين بارزين ، الاول هو مقابلته صدفة لكمال بعد انفضاض احدى المظاهرات وطلبه الى شقيقه الاصغر الا يتفوه بكلمة عن هذه المقابلة في البيت . والموقف الثاني هو ذلك اللقاء بينه وبين ابيه بعد حادثة الجامع ، اللقاء العاصف من جانب الاب ، الدامع المرتبك ـ ولكن الممتلىء اصرارا على موقفه ـ من جانب فهمي . ولكن فهمي الى جانب فقره الظاهر في المواقف العملية الخارجية ، نرى المؤلف يغدق عليه من محاولات صنع المونولوجات الداخلية ـ بهدف اكتشاف وعي فهمي الباطن وتيار تفكيره ـ حيث تمتزج فيها المناجاة الذاتية ، بتقريرات المؤلف المباشرة ، بجزئيات صغيرة من البيئة الواقعية المباشرة التي يعيشها فهمي في لحظة المونولوج . ومع هذا فقد اندفع فهمي الى عمله الثوري الاول من خلال موقف عملي اثر المؤلف ان يورده في صورة تقريرية لا تجسيد فيها ، حينما احتدمت المناقشة بين الطلبة والركاب في الترام المتجه الى مدرسة الحقوق . ساعتها اندفع فهمي الى المظاهرة ، لا يستطيع ان يكون خطيبا ، فهو لا يتمتع بموهبة الخطابة ، ولكنه يكتفي بترديد هتافات الخطباء طالما هذه الهتافات تعبر عما يضطرم بداخله من افكار ومشاعر . ولكننا نعرف بعد هذا ومن خلال تقريرات المؤلف ايضا ، المتناثرة في مونولوجات فهمي الداخلية انه اصبح ذا راي مسموع في اللجنة التي انضم اليها ، وان لم يصبح من اعضائها البارزين . هذا هو « سلوك » فهمي عبد الجواد ، يتمتع بكمية كبيرة من المواقف السلبية فيما يتعلق بكل مشاكل اسرته ، المشاكل التي تقوم عليها المادة الاساسية للبناء الروائي ، ولا يتخذ سوى موقفين ايجابيين الى جانب كمية لا باس بها من المناجيات الذاتية التي يتوزعها السخط والرضى ، التمرد والقبول ، الرفض والحنين .

فما الذي دفع فهمي الى الثورة ؟ يخيل الي انه لا بد قبل الاجابة على هذا السؤال ان نطرح سؤالا آخر اكثر شمولا : ما الذي اشعل الثورة نفسها في رواية نجيب محفوظ ؟ لقد سارت تجارة السيد عبد الجواد على خير حال فلم يمسها ضرر ، بل لقد تزوجت البنتان في اثناء الحرب ، وتزوج ياسين وطلق ايضا في اثناء الحرب نفسها ، بكل ما سببته هذه الزيجات الثلاث والطلاق الواحد للسيد عبدالجواد من تكاليف باهظة . بل لقد كان الجنود الانجليز ظرفاء للغاية مع كمال الصغير وكانوا يرددون معه الاغنيات ، وينفعلون جدا مع اغنية « يا عزيز عيني ، بدي اروح بلدي » ويمنحون كمال الحلوى ولم يشرعوا في « القتل » الا لمواجهة المظاهرات التي انفجرت « بسبب » نفي الزعماء المجهولين الذين لم يفعلوا اكثر من تقديم مذكرة مهذبة لنائب الملك يطلبون فيها رفع الحماية واعلان الاستقلال . اما فهمي فلم يكن يملك من الافكار غير تلك الانفجارات الانفعالية عن انه « لا حياة لامة يحكمها اجنبي » ، فكان منطق امه البسيط الذي لم يستخدم سوى برهان واحد « لقد ولدتكم جميعا في ظل حكمهم وما زلنا احياء بحمد الله » ، كان هذا المنطق مقابلا متكافئا مع اقوال فهمي التي لا تحمل الكثير من ثمار عقله الثوري الجديد . لقد كانت امثال هذه الاقوال الشاعرية كافية قبل انفجار « الثورة » الشاملة بعشر سنوات او اكثر قليلا لالهاب حماسة الطلبة والتجار والاعيان الذين كان مصطفى كامل يخطب بينهم . ولكن هذه الاقوال لم تعد كافية ابدا لاشعال ثورة تشمل مصر كلها ، فلاحيها وعمالها وطلبتها وموظفيها وشيوخها وتجارها واعيانها وفنانيها . ومن البديهي ان هؤلاء جميعا لم يكونوا يملكون الافكار عينها ، لانهم لم يكونوا يملكون نفس المصالح ولا يتمتعون بنفس الطاقة الثورية التي تملكها وتتمتع بها كل من تلك الفئات المختلفة . ولكن فهمي ـ وهو ثوري « بين القصرين » الوحيد ـ لا يبدي ما يدل على انتمائه الفكري ان كان يتمتع حقا بانتماء ما ، يؤهله لان يكون عضوا في لجنة من لجان الثورة ، وذا راي مسموع في هذه اللجنة ، ثم لان يكون مندوبا عن لجنة الطلبة العليا في المظاهرة الاخيرة . ان هذا الفقر الفكري الواضح الذي يعانيه فهمي ليدفعنا الى التساؤل عما اذا

كانت مصر خالية من الفكر الثوري ـ على اي مستوى من المستويات ـ قبل ثورة ١٩١٩ . حقا ان مصر ـ التي ازداد تكوينها الاجتماعي والفكري نضجا وتعقيدا في خلال السنوات العشرين السابقة على الثورة ـ لم تكن هي نفس ذلك المجتمع الذي تسوده ثقافة واحدة وعقلية واحدة تنبع من اصل واحد هو الازهر . ولذلك فان من حقنا ان نتساءل عن موقع فهمي الفكري الذي لا يكفي لتوضيحه مجرد انتمائه الاجتماعي الى اسرة من متوسطي التجار . قد يكون هذا التوضيح مقبولا في التحليل التاريخي ـ بل انه فعلا هو التوضيح العلمي للتاريخ ـ ولكنه لا يكفي في الصورة الادبية ان يترك المؤلف الشخصية التي خلقها لكي تكون نتاجا سلبيا لوضع اجتماعي تعمد ان يقدم له صورة تفصيلية ـ تجعله في كثير من الاحيان وضعا شاذا واستثنائيا ـ بينما يترك الشخصية الثورية ـ محور الجوهر الواقعي الذي يبغي نقله الينا ـ دون ان يلقي عليها شعاعا واحدا من الضوء بحيث تصبح شخصية تمطية دالة على مجموع الاخرين من امثاله الثوار ، مثلما كان السيد احمد عبدالجواد شخصية نمطية دالة على مجموع الاخرين من امثاله التجار . ذلك ان الشخصية السلبية ـ كشخصية السيد احمد عبد الجواد ـ يمكن ان تكون نتاجا سلبيا للوضع الاجتماعي ، اما الثوري فلا يمكن ان يكون كذلك . انه ـ اي الثوري ـ يضيف الى محصلة الوضع الاجتماعي وعيه هو الخاص بهذا الوضع ، يضيف الى الواقع الاجتماعي رؤيته الفكرية وفهمه للعملية الاجتماعية ، والا لما امكن له ان يصبح ثوريا ، او لظل مجرد متمرد مندفع لا يخلف وراءه اكثر من زوبعة من الحزن والذكريات الطيبة . بل ان ابتعاد المؤلف عن اية ازمة اجتماعية حقيقية تواجهها الاسرة التي حصر نجيب محفوظ عمله داخلها ـ غير قصة اجبار السيد احمد عبد الجواد على ردم حفرة بالتراب في اثناء عودته ثملا من بيت عشيقته آخر الليل ـ اقول ان هذا الابتعاد ليدفعنا الى التساؤل عن ماهية هذه الثورة التي تنفجر لهذا السبب الوحيد المباشر العلوي ـ القبض على زعماء ثلاثة ـ او باشوات ثلاثة كما دعاهم احد اصدقاء السيد احمد من التجار ـ اثنان منهم مجهولان تماما حتى عند الثوار المثقفين ، وثالثهم متهم بعمالته للانجليز من بعض هؤلاء الثوار. يقول ياسين في مناقشة مع فهمي ان من بين المعتقلين حمد الباسل باشا وهو شيخ قبيلة مرهوبة لن تسكت على اعتقاله ، فيجيبه فهمي بان القضية قضية وطن باجمعه وليست قضية قبيلة من القبائل . المؤلف اذن يعرف الاسباب الحقيقية للثورة ، وفهمي يكاد يعرف هذه الاسباب .. ولكننا لا نجد اثرا لهذه المعرفة في مواقف فهمي ـ السلبية او الايجابية ـ بل لا نجد لها اثرا في مناجياته الذاتية البعيدة عن رقابة الاب الجبار القاسي وعن رقابة السلطة العسكرية .

اكان اندفاع فهمي الى العمل الثوري اذن بسبب فشله في الحصول على حبيبته ، ام كان نوعا من التمرد على الارهاب الابوي في مجال بعيد عن المجال المباشر لهذا الارهاب ، ام كان مجرد رغبة في الامتلاء باحساس جماعي شامل وجارف فرارا من العزلة الفردية ؟ . هذه كلها عوامل فردية وفاها المؤلف حقها كاملا ، ولكن « الثورة » نفسها تصبح بهذا الوضع حالة نفسية فردية وليست ذروة لعملية اجتماعية مركبة وشاملة ، الا اذا قبلنا هذا الفصل الكامل بين الثوري والثورة الذي وضعه المؤلف .. « لو ان الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لا بد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وارضه كالزلزال الذي ينفس عن ابخرة بطن الارض المتجمعة فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فالقى بنفسه في خضمها .. » . كيف وقعت الواقعة اذن ، وكيف تهيأ فهمي لكي يكون في الوضع الفكري والنفسي الملائم للاندماج فيها كل هذا الاندماج ، متخليا عن كل سلبية طبقته وفتورها ولامبالاتها . لقد امتلات غربة فهمي الاخلاقية بالكثير من الاحلام عن الحب وعن الاسرة وعن الوطن ، ولكن احلامه لم تتجاوز حدود الرؤى الشاعرية الطيبة ـ بعيدة كل البعد عن « ثقافته » المفترضة المستوحاة من استاذيه محمد عبده ومحمد فريد ، ومن دراسته القانونية المثقلة بثمار العقل الاوروبي المستنير عن تاريخ القانون والدراسات الدستورية .. الخ.

ان الثوري لا يصبح ثوريا الا من خلال اكتشافه لضياع قيم معينه يريد هو تاكيدها او ايجادها على اساس ارتباطته الاجتماعية ـ التي يختارها هو من خلال وعيه الاجتماعي لا من خلال استسلامه لبيئته ومحاولة استرضائها ـ وعلى اساس انتمائه الفكري . وهو بهذا الوضع يصبح مهاجما لمؤسسات اجتماعية وقيم اجتماعية عتيقة ومهترئة ومعوقة كما يصبح مدافعا عن مؤسسات وعن قيم اخرى جديدة واكثر انسانية ودافعة لحركة المجتمع ولحركته هو الشخصية . اما فهمي عبد الجواد فلا يكاد يفتقد اكثر من تجاوب الاخرين من ابناء اسرته معه ، هذا التجاوب الذي لا يمنع حدوثه سوى تشوه الآخرين الاخلاقي وتخلفهم الفكري المروع . ولكن فهمي لا يهاجم هذا التشوه مطلقا ـ رغم حلمه بان يكتسبوا اخلاقا اخرى مغايرة ، ولا يكاد يهاجم تخلفهم الفكري الا هجوما « دمثا » مواربا على كثير من الحياء . فما الذي اراد فهمي ان يوجده ؟ لقد حلم بان يتغير اهل بيته ، وان يستقل وطنه . ولكنه لم « يفعل » شيئا من اجل ان يتغير هؤلاء الاهل ، وان كان قد اندفع الى العمل الثوري من اجل « الاستقلال » الذي لم يعرف شيئا عما ستكون عليه صورة وطنه اذا تحقق .

هكذا يكون فهمي عبد الجواد بطلا لم يحسن اعداده للقيام بثورة لم تكن الظروف قد تهيأت لانتصارها . ان فراغ فهمي الفكري وامتناعه عن مقاومة انحطاط عالمه ـ او اقتصار مقاومته على الاندهاش او التالم او عدم التصديق ، ثم المحافظة على نبله وطهارته الذاتية ، ليدفعان الى اعتبار موته في النهاية نوعا من الانتحار رغبة في التطهر ـ لا من مجرد « خطيئة » جبنه في المظاهرات السابقة ـ وانما التطهر مما اعتقده نوعا من الضعف او التخلي او النكوص . فقد مضى قبل موته يفكر في مريم وفي ابيه وامه واخوته ، وفي هروبه السابق في المظاهرات ، وفي الزعيم نفسه ، متخيلا نفسه شهيدا ـ وليس ميتا بالتحديد ـ يتسبب استشهاده في قلب حياة كل هؤلاء رأسا على عقب. ويقول التاريخ ان حياة مصر لم تنقلب رأسا على عقب بفعل ثورة ١٩١٩ ، وان كان قد اصابها بعض التغيير . فقد نجحت الطبقات العليا في تهدئة الثورة والجامها وعزلها عن جماهير الشعب الكادح او عزل جماهير الشعب عنها ، حينما حصلت هذه الطبقات على ما ظنته كافيا لضمان مصالحها الخاصة من مكاسب . وبهذا المعنى يكون موت فهمي عبد الجواد تجسيدا لنهاية الثورة بالصورة التي وضعتها الطبقات العليا ، وطبقا لما اعطاه التاريخ « الرسمي » او التقليدي للثورة .

وهكذا لا يكون فهمي عبد الجواد بطلا « لمصر » ، وان كان بطلا لمحاولة مخفقة من اجل تحقيقها . لقد تضخم وجدانه الشعري على حساب وعيه ، وتضخمت مطامحه غير المحددة على حساب امكانياته غير المعروفة له ، وانفصلت ثقافته الشخصية عن تراث شعبه المستنير، علاوة على عدم حصوله من ثقافته الجديدة سوى على قدر محدود وغير متناسب كيفيا مع ظروف عالمه المحلي الفقير ، لكل ذلك كان لا بد ان يموت شهيدا لنبله الساذج ، لا لرصاص اعدائه واعداء شعبه . اما التاريخ فيقول بأن شهداء آخرين ، قتلوا على المشانق في القرى ، في الفترة نفسها التي قتل فيها فهمي عبد الجواد بالرصاص في شوارع القاهرة ، وكانوا قد طلبوا الخبز والارض مع الاستقلال . اولئك كانوا اكثر « مصرية » من فهمي عبد الجواد ، لانهم ـ بغير تفلسف ـ رأوا الثورة في شمول اكثر اتساعا ، ومن خلال معاناتهم المباشرة للجوع والمرض والفقر ، وليس من خلال معاناة الحب الفاشل او قسوة الاب او فتور المناقشة مع الاخوة . لقد كشف فهمي عبد الجواد عن جانب من طبيعة المقاومة المصرية كما عرفها التاريخ الحقيقي ـ لا شك في هذا ـ ولكن التاريخ في شموله ، ما يزال بحاجة الى اكتشاف على الدرجة نفسها من الشمول .

القاهرة

سامي خشبة